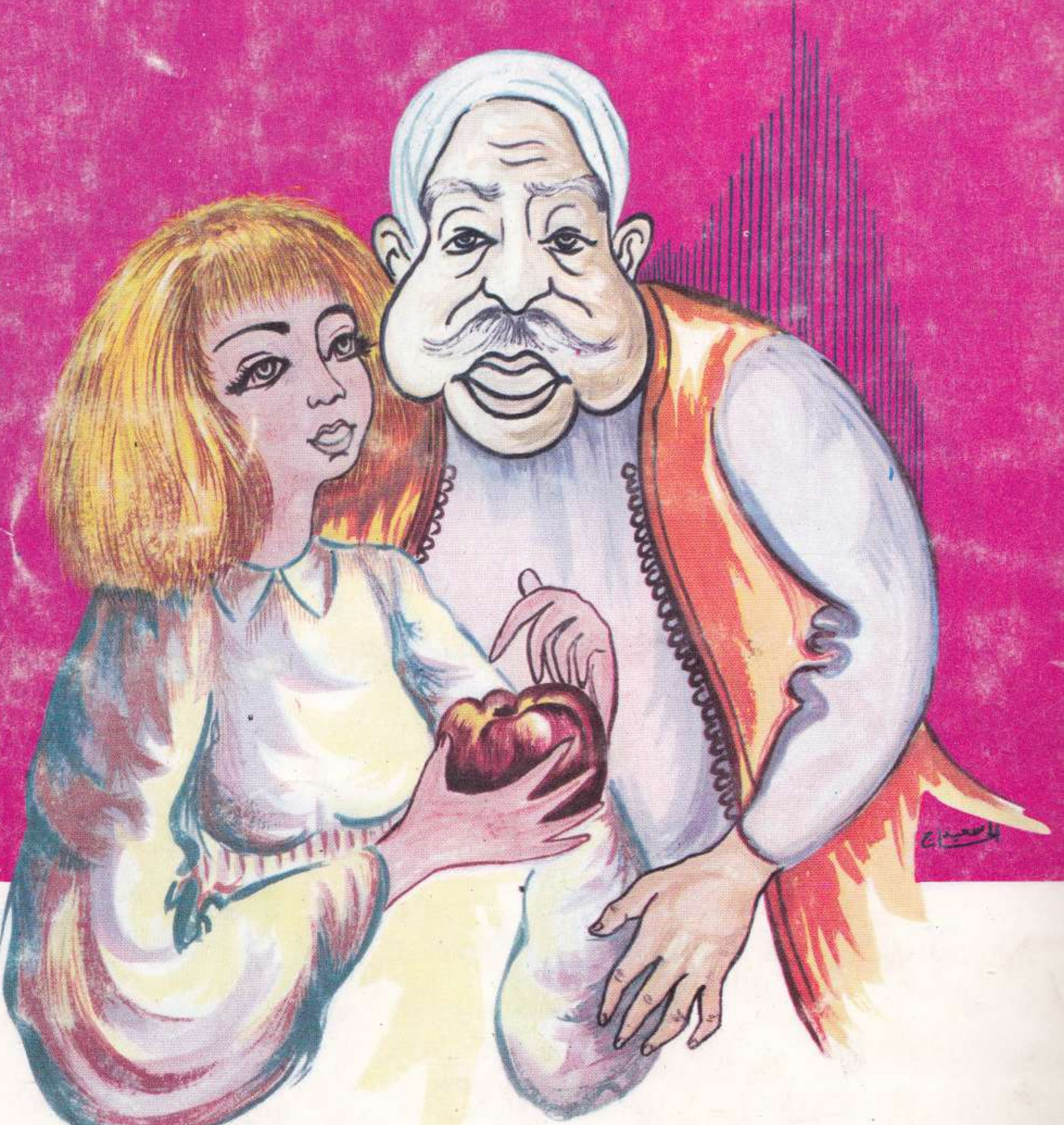
عمي الدحداح
بياع التفاح



نشر
الشركة التونسية للتوزيع

قصة
كطيف

عبد المجيد عطيّة

عمّي الدّحداح بيّاع التّفاح

الشركة التونسية للتوزيع

دخلت أمي العكري ذات صباح على جارتها منوبية دون أن تدق الباب كعادتها وعلى رأسها برنس رمادي ذهب لونه كان للمرحوم زوجها وبقيت تلتحف به كلما تجولت داخل الحومة وقد أمسكت ذيليه بيدها اليسرى وباليمنى فرد قبقاب تقطع سيره فبقيت تعرج في مشيتها بقبقاب واحد في رجلها اليمنى بينما اليسرى حافية . دخلت دار منوبية وهي تسرع الخطى وتنهج وتقول : هل يعجبك هذا يا منوبية هل يعجبك ما يصدر عن عائشة القادرة التي بلانا اللّه بها والتي لا يسلم منها إنس ولا جان . وجلست تستريح على الدكانة المواجهة لصحن الدار وقد وضعت فرد القبقاب إلى جانبها ودفعت برنسها عن رأسها مواصلة صياحها ودعاءها وكانت منوبية في صحن الدار منحنية تكنس ببطء ولو لم تكن مشغولة البال لتملكها الضحك ولقالت في نفسها : دائما الخصومة قائمة بين أمي العكري وأمي عائشة لأتفه الأسباب . ماذا وقع هذا الصباح يا ترى ؟ ولكنها كانت مهمومة فلم تنشرح لصوت أمي العكري وبالرغم منها تركت مكنستها وذهبت إليها تسمع شكواها وتحاول تهدئتها . وما إن اقتربت وسلمت عليها حتى نظرت إليها أمي العكري مليا وسريعا ما انطفأ غضبها كجمرة ألقي بها في الماء وقالت لها في استغراب :



– الصباح يا فتاح ماذا وقع لعزيزتي منوبية ؟ لماذا أراك حزينة ضيقة ٱلنفس مهمومة ؟ فأجابتها متنهدة :

– لا شيء يا أمي ٱلعكري وأنت ماذا جرى لك ؟

– جئت أشكوك همي لكن يظهر أن همك أعظم من همي . قولي ما بك ؟

– ما بالقلب لا يعلمه إلاَّ اللَّه والشكوى لغير اللَّه فضيحة .

– لا ! لا ! لا تخفي عنّي أمك ٱلعكري شيئا . ماذا جرى ؟ ولماذا عيناك محمرتان ؟ كنت تبكين ولا شك . ٱجلسي بجانبي وٱذكري لي ما حدث .

– ماذا تريدين أن أقول ؟ من لم يخدمه ٱلحظ في هذه ٱلدنيا يعش شقيا مدى حياته .

– ماذا جرى ؟ هل خاصمك زوجك ٱلمختار ؟

– لم يخاصمني ولكن... ليته خاصمني .

– لم أفهم كلامك وضحي .

– لم يقع أي خصام بيننا ولكن منذ أشهر تغير ولم يعد باشا منشرحا على عادته بل صار يدخل ٱلدار صامتا ويخرج صامتا وفي نومه أسمع تنهداته تخرج من أعماق صدره كأنه سينفجر .

– لعل تجارته في كساد ولم يجد سبيلا لمواجهة ديونه .

– ما أظن إذ لو كانت له ديون لأخبرني عنها ولسلمته



مصوغي لرهنه ريثما تستقيم أمور التجارة .

– ما عسى أن يكدره ؟

– ربما كان ما فهمته ٱليوم .

– فهمت ماذا ؟

– فهمت أنه في شوق إلى الأطفال آسف أنه لم يرزق ولدا ولا بنتا .

– ما زلتما ما شاء اللّه في عنفوان ٱلشباب وأمامكما الأيام والأعوام لتنجبا ٱلعديد من ٱلبنين وٱلبنات .

– نعم لكن تزوجنا منذ خمس سنوات ولم نرزق إلى الآن ذكرا ولا أنثى .

– كيف فهمت عنه أنه في شوق إلى ٱلذرية ؟

– فهمت ذلك لأني أعلمته هذا ٱلصباح أن قطتنا ولدت ستة فتنهد وسكت . ولما ٱقترحت عليه أن نغرقها في ٱلبحر ما دامت صغيرة مغمضة ٱلعينين حتى لا يكثر عدد ٱلقطط بالمنزل أجابني كالمشتاق ٱلملهوف : لا ! لا ! دع ٱلقطة تفرح بصغارها وتتمتع بفلذات كبدها . ثم غير مجرى ٱلحديث كأنه ندم على ما قال .

– أهذا ٱلذي يبكيك وينغص عليك عيشك ؟

– نعم لأني أرى ٱلمستقبل مظلما أمامي وسيأتي يوم يعزم فيه على طلاقي أو على تزوج امرأة أخرى لأنني عاقر .

– هدئي روعك يا عزيزتي ولا تحزني وسترين أن أمك العكري ستفتح لك في المضيق طريقا . توكلي على اللّه وعلى سيدى عبد القادر الجيلاني وما أمامك إلاَّ الخير إن شاء اللّه . غدا سنذهب إلى عمك الدحداح بياع التفاح الذى يفوح ويرد العقل والروح وسيسلمك تفاحة تأكلينها فتحملين بإذن اللّه وتلدين ولدا نفرح به ونقيم لختانه حفلة كبيرة بزاوية سيدى عبد القادر .

فقالت منوبية وقد تطلق وجهها بعض الشيء ورجع الأمل إلى نفسها :

– أتظنين أنه يأتي يوم أكون فيه أما ويكون لي مولود أرضعه وأضمه إلى صدري .

– ولم لا ؟ كم قبلك من نساء حملن بعد سنوات وسنوات وملأن الدار بنين وبنات .

– إن شاء اللّه يا أمي العكري من فمك إلى السماء .

– سنذهب غدا عند الضحا إلى عمك الدحداح . والآن قولي لي مع السلامة فإن لي أشغالا كثيرة تترقبني .

– لا تخرجي حتى تشربي قهوة .

– لا ! لا ! دمي كله أصبح قهوة من هذه الرقطاء . دعيني أرها قدرها وأفهمها أن أمك العكري لا تخشى بأسها .

وعاودها غضبها وصياحها ودعاؤها فقالت لها منوبية مهدئة :

ـ ما زلت غاضبة ، بردي دمك وحافظي على صحتك .
ـ ورحمة من يعز علي وجاه سيدى عبد ٱلقادر ٱلجيلاني فارس بغداد سترى مني ما يجعلها تصب الدموع أنهارا .
ـ ماذا جرى حتى تغضبي كل هذا ٱلغضب ؟
ـ ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟ ما فعلته هذه ٱلجهنمية ينسخ في ٱلكتب وينقله ٱلصغار عن الكبار .
ـ وهل هي جديدة لديك ؟ إنك تعرفينها منذ أعوام وأعوام .
ـ صبرت لها كثيرا فصارت تظن أنني أخشاها حتى فعلت ما فعلت ٱليوم .
ـ وماذا فعلت ؟
ـ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ وهل تستطيع أن تفعل أكثر ممافعلت؟
نهضت ٱليوم كعادتي مع ٱلفجر فتوضأت وصليت ٱلصبح حاضرا . . .
فأسرت منوبية إلى نفسها : هاه ! إنها ستتلو سورتها ٱليومية وقد حفظتها وواصلت في سرها . . . وقرأت ٱلفاتحة وترحمت على والدي وعلى أولياء اللّه ٱلصالحين وعلى جميع ٱلمؤمنين . . . .
فقالت لها أمي ٱلعكري :
ـ توحدي اللّه يا منوبية ما لك ذاهلة غير مصغية إلي كأنك في عالم آخر .

– لا إله إلاَّ اللَّه محمد رسول اللَّه ، إنـي مصغية إليك ألم تقولي : توضأت وصليت ٱلصبح حاضرا . . .

– نعم وقرأت ٱلفاتحة وترحمت على والدي وعلى أولياء اللَّه ٱلصالحين وعلى جميع ٱلمؤمنين ثم أخذت مكنستي وكنست حجرة النوم وصحن ٱلدار وٱلسقيفتين وأمام ٱلدار وجمعت الزبالة وكدستها كالعادة ريثما يمر ٱلكناس فيأخذها ثم دخلت ٱلمطبخ وغسلت ٱلماعون ولما خرجت أتدرين ما وجدت ؟

– ماذا وجدت ؟ خيرا إن شاء اللَّه .

– وجدت أن عائشة ٱلقادرة أرسلت دجاجها على كدس ٱلزبالة وقد تعبت في جمعه فنثره أمام داري . فثار ثائري وغلى ٱلدم في رأسي وصحت لطرد ٱلدجاج وأردت نزع فرد ٱلقبقاب من رجلي لأرمي به دجاجة كانت تنظر إلي بعين شامتة فتقطع سير ٱلقبقاب وبقيت أمشي كالعرجاء برجل حافية وسط زق دجاجها . ولا أشك أنها وراء بابها تنظر إلي ساخرة مني . باللَّه عليك أيعجبك هذا ؟ قولي ٱلحق .

وأسرت منوبية إلى نفسها : لو كانت أمي عائشة حاضرة لادعت أن أمي ٱلعكري كدست قصدا ٱلزبالة أمام دارها لتعييرها بأنها تقوم مؤخرا ولا تصلي حاضرا وأنها وسخة عفنة . ثم قالت :

– ٱلحق أن ٱلدجاج مفسد وحيثما حل . . .



– لذا كان عليها أن تمسك دجاجها عندها ثم إني لا أشك أنها أخرجته قصدا قبل مرور ٱلكناس كيدا بي وشماتة في . ولكن أكون خارجة من شفاعة محمد يوم ٱلقيامة إن لم أذقها ٱلعلقم .

– اللّه يهدى من خلق منذ كم وكم من سنة وأنتما في خصام . هدئي بالك وحافظي على سلامة جسمك .

وخرجت أمي ٱلعكري وهي تعرج في مشيتها وفرد قبقابها بيدها وهي تقول : سترى سترى هي ودجاجها ، أما أنت فإلى غد .

ومن ٱلغد تحولت أمي ٱلعكري ومنوبية إلى دار عمي ٱلدحداح فاستقبلهما رجل قصير ٱلقامة ضخم البطن قد قوست السنون ظهره حتى صار ذقنه جزءا من صدره وجعدت جبهته وبيضت شعر رأسه وقد اعتم بعمامة بيضاء كثيرة الليات ولبس سروالا فضفاضا من صوف وٱنتعل بلغة صفراء. فبدرته أمي العكري إلى السلام فرد عليها في هدوء وبشاشة وفي يده سبحة كهربان واردة من مكة ٱلمكرمة يجذب حباتها حبة حبة وشفتاه تتحركان باستمرار . ثم قالت له أمي ٱلعكري :
– وأشارت إلى منوبية وقد بقيت محتجبة ٱلوجه مطأطئة الرأس –
«إنها شابة مسكينة تزوجت منذ خمس سنوات ولم ترزق أبناء وهي تود أن يجود اللّه عليها ولو بمولود واحد فجئناك ورجاؤنا

ألاَّ تخيبنا» . فأجاب عمي ٱلدحداح مخاطبا منوبية : «يا ٱبنتي مشيئة اللَّه فوق كل مشيئة وقدرته فوق كل قدرة» ثم التفت إلى أمي ٱلعكري وقال لها : «يظهر أنها ٱمرأة طيبة النفس وإن شاء اللَّه تقضى حاجتها . فلم تتمالك منوبية عن أن تقول : «إن شاء اللَّه ، إن شاء اللَّه ولك كل ما تطلب» . قال عمي ٱلدحداح : «لا أطلب إلاَّ شيئا واحدا» . قالت منوبية : «وما هو ؟» قال : إني ساعطيك تفاحة تأكلينها في ٱلصباح ٱلباكر إثر صلاة الصبح وبطنك خاو من الطعام وبعد أكلها تبقين كامل اليوم صائمة عن الطعام والكلام وتصلين بين الظهر والعصر تسعا وتسعين ركعة عدد أسمائه ٱلحسنى وبإذن اللَّه ستلدين فإن كان المولود ذكرا فهو لك أقر اللَّه به عينك وإن كانت أنثى فهي لي أتسلمها من يوم ولادتها هذا هو شرطي .

فبوغتت منوبية بهذا الشرط الذى لم تكن تترقبه البتة واحتارت في أمرها وقبل أن تجيب قالت أمي العكري :

ـ الشرط مقبول مسبقا ماذا نفعل بالبنات ؟ خذها حلالا عليك حتى يوم ٱلقيامة .

وأرادت منوبية أن تتكلم فقاطعتها أمي العكري قائلة : أليس زوجك يرغب في ولد يحمل ٱسمه ويخلفه بعد مماته ويرث جميع ثروته ؟ أما البنت فلأي شيء تصلح ؟ لا تستطيع



دفعُ المحراث ولا الطرد من الميراث كما يقولون .

ونهض عمي ٱلدحداح وسبحته في يده وسار بخطى وئيدة يسبقه فيها بطنه إلى خزانة فتحها بيد مرتعشة وأخرج منها تفاحة كبيرة نصفها أصفر ونصفها أحمر تعج منها رائحة ذكية سريعا ما ملأت الغرفة وقدمها إلى منوبية قائلا : كليها بالهناء والشفاء وإن شاء اللّه ستحملين عما قريب .

وعادت منوبية إلى دارها وهي تتساءل أتصدق قول عمي ٱلدحداح أم لا تصدق . ومضت الأيام والأسابيع وحملت منوبية ففرح زوجها فرحا لا مزيد عليه أما هي فلم تدر أتفرح أم لا إذ ما عساها تفعل لو ولدت أنثى أتطلع زوجها على الحقيقة وماذا سيقول وهل تستطيع حقا أن تفارق فلذة كبدها وتسلمها هدية لهذا الشيخ ومن يدري ماذا سيكون مصيرها ؟

وبعد أشهر جاء منوبية المخاض فحضرت القابلة وحضرت أُمي العكري وحضرت الجارات فملأن عليها الغرفة وبعد أوجاع متقطعة وضعت منوبية . فساد الغرفة صمت رهيب كأنما خيم عليها الموت وتكلمت أُمي ٱلعكري في شيء من المرارة والخيبه وقالت : «إنها أُنثى ، الحمد للّه على كل حال وعلى أن تم ٱلخلاص بسلام» . فلم تتمالك منوبية أن ٱستسلمت إلى بكاء مديد حار وعبثا حاولت الحاضرات اسكاتها فقد بقيت دموعها تتساقط . وبعدما قطعت القابلة المشيمة وعقدت الصرة وقمطت



البنية خرجت فلقيها المختار في السقيفة يذهب ويجيء ويقوم ويقعد فأخبرته أنها خلصت على أحسن حال وأنها ولدت بنية جميلة فتقطب جبينه وسكت ذاهلا ثم ملك نفسه وتطلق وجهه وتكلف الابتسام وقال : الحمد للّه على الخلاص ومن ولدت الأنثى تستطيع أن تلد الذكر ومد يده إلى جيبه فأخرج منه درهما ووضعه في كف القابلة فشكرته لكن في صوت فاتر ودخل المختار على زوجته متبسما وقال لها مشجعا : «الحمد للّه على خلاصك وعلى أن أصبح لنا مولود مثل الناس وإن شاء اللّه ستلدين أخاها . ثم أخذ البنية من فراشها وهي تبكي بكاء متقطعا وقدمها إلى أمها وقال لها : انظرى إليها ما أجملها إنها أخذت منك بياض بشرتك واستدارة وجهك وزرقة عينيك وشعرك الذهبي . إنها ستكون بارعة الجمال مثلك فكفكفت منوبية دموعها ونظرت إلى ابنتها وقالت في نفسها : «لا ! لا ! أبدا ! أبدا ! لا أسلمه فلذة كبدي إنها ستبقى معي وعلى كل فإني لم أعده بل أمي العكري هي التي وعدته فعليها هي أن تفي بوعدها إن شاءت وأخذت ابنتها وضمتها إليها طويلا وسقطت دموع حارة على خديها . ثم قال لها زوجها : «ماذا نسميها ؟ فقالت نسميها... إن شئت سميناها تفاحة . فقال : نعم . إنه اسم يليق بها فهي حمراء الخدين ذهبية الشعر كتفاح بر النصارى .

ومرت السنوات وكبرت تفاحة وكانت مع جمالهـا ذات ذكاء وحيوية خفيفة النفس تجيب على البديهة . وبينما هي تلعب ذات يوم مع أترابها أمام الدار إذ مر بالقرب منها رجل لا تعرفه فوقف ونظر إليها مليا ثم قال لها :

– يومك سعيد يا تفاحة .

– ويومك أسعد يا سيـدي ولكـن بـربك من أين تعرفني وتعرف اسمي ؟

– اسمك بين عليك فـأنت حمـراء الخـد ذهبيـة الشعـر كالتفاحة .

ثم أخذ خيطا وربطه حول بنصر يدها اليمنى وقال لها : بلغي أمك السلام وأريهـا هذا الخيط وقـولي لها : يقـول لك خالي : «وعد الحر دين» وانصرف . ودخلت تفاحـة تجـرى وأعلمت أمها بما وقع فارتبكت أولا ثم أمسكت نفسها وهدأت روعها وقالت لابنتها : «إذا رأيته مرة أخرى فقولي له : تقول لك أمي : «لا أعطي الدرهم حتى آخذ الدينار» . فقالت لها تفاحة : «ومن هو هذا الرجل الذى يقول إنه خالي وأنا لا أعرفه ولم يزرنا من قبل ؟

– نعم إنه خالك ولكن يفضل أن يعيش وحده ثم إنه لم يكن على وفاق مع أبيك لذا لا يزورنا وأرجوك ألا تعلمي أباك بشيء مما وقع .

وبعد أُسبوع عاد عمي الدحداح في نفس الوقت فوجد تفاحة تلعب أمام الدار فجرت إليه وٱرتمت في أحضانه فقبلها وقد غلب عليه ٱلتأثر وكادت دموعه تفيض وقبل أن يتكلم قالت له : «تقول لك أُمي لا أُعطي ٱلدرهم حتى آخذ الدينار» فقال عمي ٱلدحداح في نفسه : «لم يكن هذا ضمن الشرط لكن لا يهم» وأخرج من قفة كانت بيده تفاحة كبيرة وقال لها : «سلميها أُمك وقولي لها سأعود إن شاء اللّه لآخذ الدرهم .

وتسلمت منوبية التفاحة ولم تدر أتأكلها أم لا إذ لو أكلتها ورزقت طفلاً لم تبق لها حجة للاحتفاظ بابنتها وإن لم تأكلها كان الذنب ذنبها وربما غضب الشيخ وٱحتال لافتكاكها وللانتقام منها . وبعد تردد أكلت ٱلتفاحة ولم تمض مدة حتى حملت وفرح زوجها ورجا اللّه أن يكون المولود هذه المرة ذكرا وأتى المخاض وحضرت ٱلقابلة وحضرت أُمي ٱلعكري وحضرت ٱلجارات فملأن عليها الغرفة وبعد أوجاع متقطعة صاحت القابلة : «ولد ! ولد ! فارتفعت من ٱلغرفة زغاريد زعزعت الدار وكادت تطير السقف وفرحت الحاضرات وبادرن إلى تهنئة منوبية إلا أنها كانت تبكي وكانت تقول في نفسها كيف سأحتمل فراق ٱبنتي ٱلجميلة تفاحة وقالت لها القابلة وهي مشغولة بقطع ٱلمشيمة وعقد الصرة وتقميط المولود : «يحق لك أن تصبي دموع ٱلفرح فكم ترقبت وكم صبرت



وها أن اللّه جازاك على قدر صبرك فوهبك بنتا وولدا ستسعدين بهما إن شاء اللّه . ثم بـادرت بالخـروج لحمل ٱلبشرى إلى المختار وكان بالسقيفة فاستقبلها منطلق الوجه ضاحكا وقالت له : الحمد للّه أن تم كل شيء على أحسن ما يرام ورزقك اللّه ٱبنا أرجو أن يكون من حملة القرآن وأن يطيل اللّه في عمره . فأخرج ٱلمختار من جيبه دينارا ووضعه في كف ٱلقابلة وما إن رأته أصفر لماعا حتى كادت تطير فرحا وأضافت من دعـاء ٱلخير ما ٱستطاعت . ودخل المختار على زوجته وكله سرور وهنأها بالخلاص وبالمولود فابتسمت ولكن ٱبتسامتها كانت فاترة تخفي حزنا وألما وقالت له : ماذا نسميه فقال : نسميه... نسميه... إن شئت سميناه عبد ٱلعزيز . فقالت : نعم الاسم وإن شاء اللّه يكسبه ٱلعزة .

ومضت الأسابيع والأشهر وأتى عمي الدحداح أمام منزل تفاحة فلما رأته ٱرتمت في أحضانه صائحة : «على سلامتك يا خالي ٱلعزيز» ! فضمها طويلا وقبلها وفاضت دموعه ثم قال لها لما أراد مغادرتها :

«بلغي أمك السلام وقولي لها «وعد الحر دين» . فقالت منوبية لٱبنتها : إذا عاد إليك مرة أخرى فقولي له : «خذ الدرهم وحافظ عليه» . وبعد أسبوع عاد عمي الدحداح فأعلمته تفاحة ما أوصتها به أمها فقال لها : «أغمضي عينيك ولا تفتحيهما

إلاَّ متى سمحت لك بذلك . ففعلت ولما فتحت عينيها وجدت نفسها في منزل فخم به سبع غرف . دخلت الأولى فوجدت أثاثها من الأبنوس المرصع بالصدف وفرشها من الزرابي الاعجمية ودخلت الثانية فوجدت ثرياتها تخطف الأبصار ودخلت الثالثة فوجدتها أجمل وكل غرفة تدخلها تنسيها سابقتها حتى وصلت أمام الباب السابع فقال لها . «هذا باب يجب أن يبقى مقفلا فلا تفتحيه أبدا واذكري أنك إذا فتحته ستحيط بك الأخطار السبعة .

– وما هي هذه الاخطار ؟

– لا يمكنك أن تعرفيها الآن فابتعدي عنها ولك سائر المنزل تفعلين فيه ما تشائين .

– وأمي متى أعود إليها ؟

– متى ضجرت من الإقامة هنا .

– يستحيل علي أن أضجر . هذه جنة على وجه الأرض لا ينقصني فيها إلاَّ أمي وأبي .

– سيأتيان إن شاء اللّه ويربيانك هنا سعيدة ولكن حذار كما قلت لك حذار من فتح الباب السابع .

وبعد أشهر خرج عمي الدحداح صباحا كعادته ونهضت تفاحة فجالت في المنزل ودخلت من غرفة إلى أخرى وقد تعودت التردد عليها وأصبحت تعرف كل ما فيها فلم يعد يروقها شيء

منها ولم تعد تبهرها الزرابي الأعجمية ولا الثريات الخاطفة الأبصار وبدأت تضجر من إقامتها بهذا المنزل وحدها فرأت نفسها فيه كعصفور في قفص من ذهب وقالت : ما هو مصيري وأنا لا أعرف شيئا عن الحياة ؟ وبينما هي تحدث نفسها إذ وقفت أمام الباب السابع فأخذت تتساءل ما عساه يكون وراءه ولماذا منع عنها فتحه ودفعها حب الاطلاع إلى أن تفتحه ولكنها آمتنعت إذ ألح عليها خالها بعدم فتحه ثم حذرها من أخطار تلحقها فابتعدت ثم عادت واقتربت ثم قالت وما عساه يلحقني من ضرر لو فتحته قليلا ونظرت من فرجته دون أن أدخل . ولكن من يدرى ماذا سيقع لي ؟ وبعد تردد وذهاب وإياب لم تدر كيف أدخلت المفتاح في ثقبة القفل وأدارته فانفتح الباب فجأة على مصراعيه وإذا بها أمام بستان فسيح فيه الزهور والأشجار المثمرة وقد آعترضتها روائح الورد والياسمين والعطرشاه فتنفست ملء صدرها وتقدمت بخطى وئيدة وهي مبهورة وتقول : «لماذا حرمني رؤية هذا الجمال الفتان لماذا حرمني التمتع بهذه الجنة الساحرة»وما زالت تتقدم في سيرها مبهوتة حتى رأت وردة جميلة طويلة القامة مفتحة تنتشر منها رائحة ذكية منعشة فاقتربت منها ونظرت اليها طويلا ثم خطر لها أن تقطفها وتضعها في غرفتها وما إن أمسكت غصنها حتى شاكها الشوك فصاحت ونظرت فإذا الدم يقطر من أصابعها

فرجعت باكية إلى المنزل، وأغلقت الباب كما كان وغسلت يدها ولم تخبر خالها بما وقع .

ومن الغد عادت إلى البستان ولم تشأ الاقتراب من الوردة إذ ما زالت تحس بألم الشوك ولم تتقدم خطوات حتى واجهها كبش أسود أقرن جرى نحوها ففزعت وعادت من حيث أتت ودخلت المنزل وأغلقت الباب بسرعة وقد كاد يلحقها الكبش وسمعته ينطح الباب بشدة يريد تحطيمه وبقي طرف فستانها بين مصراعي الباب وأحست أن الكبش أمسكه وصار يجذبها منه وبقيت تصيح وتجذب بكل قواها حتى تمزق الفستان وسقطت على الأرض مغشيا عليها . ولما استفاقت قالت في نفسها : «لخالي الحق وألف حق لما حذرني من فتح هذا الباب المشؤوم . لن أعود إلى فتحه ولن أخاطر بنفسي» وأسرعت إلى غرفتها ولبست فستانا آخر وكتمت أمرها عن خالها .

ومن الغد حاولت جهدها أن تبتعد عن الباب ولكن دافعا داخليا ملحا دفعها إلى فتحه ووجدت نفسها في البستان وبقيت تتقدم بحذر وإذا بها أمام كلب عظيم فاتحا فاه مبرزا أنيابه الحادة . فصاحت وأرادت العودة إلى المنزل لكنها ابتعدت عنه ونظرت حولها فرأت شجرة فبادرت إلى تسلقها وبقي الكلب يطوف بالشجرة وينبح وهي ترتعش وتنظر حولها عساها ترى



ما يُنْقِذُهَا . وطال طوَافُ الكلب بالشجرة ففكّرتْ في خالِهَا وما عساهُ يقولُ لو أتى ووجدَهَا على تلك الحالةِ . وقارَبَتْ الشّمسُ أَنْ تَغِيبَ فابتعد الكلبُ ولم تَطْمَئِنَّ إلا عندمَا اخْتفَى عن بَصرِها . فَبادرتْ إلى النّزولِ وفي تسرُّعِها أَمْسكتْ بِغُصْنٍ صغيرٍ فتكسّرَ وسَقَطتْ على الأرض وقد الْتَوَتْ رِجلُها تحتها . فصاحتْ وبكتْ مِنَ الأَلَمِ وعادتْ إلى المَنْزِلِ خطوة خَطْوَةً تَعْرُجُ في مِشيتها وأغلقت البابَ ودخلتْ غُرفتَها وٱرتمتْ على فِراشِها وقالت : «تائِبَةٌ لِلَّهِ لَنْ أَعودَ إلى فتح هذا الباب اللَّعينِ» . وبَقيتْ أُسبوعًا لا تكادُ تُغادِرُ غُرفَتَهَا حتّى لا ترى البابَ وحتّى لا تَرْغَبَ في فتحِهِ . ولاحظ علَيْها عمّي الدّحداحُ الكآبَةَ والضَّجَرَ فَسألَهَا عمَّا بِها فقالتْ إنّها تودُّ مُقابلةَ أُمِّها وأَبيها فَأجابهَا إِنَّها ستراهُمَا عمَّا قريبٍ إنْ شاءَ اللّهُ .

ومضى الأُسبوعُ كأَطْوَلِ ما تَكونُ الأسابيعُ وعاودَتْها الرغبةُ المُلِحَّةُ في العودةِ إلى البستانِ وكانت بين عامِلَيْن يَتَنازعانِها بشدَّةٍ ولم تدْر كيفَ تغلّب عليْها حبُّ الاطّلاع ففتحتْ البابَ السابِع وهْيَ تقُول في نفسها : «ماذَا يترَقَّبُني اليوْمَ مِنْ أَخْطارٍ - لُطْفَكَ يَا رَبّي» . وكانت تتقدّمُ رويدًا رويدًا وتنظُر حوْلهَا وتقِفُ وتُصْغِي بانتبَاه وبينمَا هيَ كذَلك إذْ قابلهَا رجلٌ مُنْكبًّا على عملِهِ فاختفَتْ وراءَ شجرةٍ وبَقيَتْ تنظُرُ اليْهِ وهْوَ يَعْزِقُ الأرْضَ وَيُنَقّيهَا مِن طُفَيْلِيّ الأعْشابِ والعرقُ يتقاطرُ من جبينهِ

فقالت في نفسها : «ما أَسعد هذا الرجل كم أَود ان أَعزق الأرض مثله حتى يسيل العرق من جبيني» . ثم حيته فرد عليها التحية ونظرت حولها فرأَت من بين الأشجار الباسقة المخضرة شجيرة نحيفة الأغصان مصفرة الأوراق قد خنقتها الاعشاب الطفيلية فعاقتها عن النمو والتفتح فقالت للبستاني : «أَراك تعتني بكل أَشجار البستان وتهمل هذه الشجرة المسكينة . لماذا ؟» فأجابها : «هذه شجرة تفاح ليست كسائر التفاح إنها لا تنتج إلاَّ ثمرة واحدة في ربيع كل سنة ولكنها تفاحة جميلة ذات لونين أَصفر وأَحمر وكنت أَعتني بها أَكثر من سائر الأشجار ومنذ ما يزيد على السنة أَوصاني عمي الدحداح بأن أهمل أَمرها ولا أَعتني بها» . فقالت له : «إن قلبي يتمزق أَلما وصدري يضيق حزنا كلما رأَيتها على تلك الحال ولو سمحت لاعتنيت بها ونزعت ما حولها من أَعشاب وسقيتها وأَعدت إليها الحياة» ودون أن تترقب جوابه أخذت مسحاة وشرعت في قلع الاعشاب وقلب الأرض ثم أَتت بالمرشة وسقت التفاحة وبينما هي منشغلة والعرق يتصبب من جبينها إذ رأَت دويبات صغيرة يتحركن وقد كن مختفيات تحت حجارة نزعتها . فصاحت مبهوتة : «ما أَجمل هذه الخنافس وما أَكثر أَرجلها» وما إن سمعها البستاني حتى جاء مسرعا ولما رأَى الدويبات صاح : «ٱبتعدي ، ٱبتعدي» ثم أَخذ المسحاة وشرع في مطاردتها



وقتلها الواحدة تلو الأخرى حتى قضى عليها وتفاحة تنظر إليه مبهوتة وتقول : «لماذا تقتل هذه الحيوانات المسكينة ؟» وبعدما فرغ من عمله أجابها : «مسكينة أنت لو لسعتك إحداها . إنها عقارب عقارب سامة .» فأجابت تفاحة في شيء من العجب : «أهذه هي العقارب التي كانت تحدثني عنها أمي وتقول إنها تلسع وتقتل من تلسعه بسمها» فأجابها البستاني : نعم هذه هي والآن وقد صرت تعرفينها فاعلمي أنه ينبغي الحذر منها وقتلها - فعادت إلى المنزل وهي تقول : «يا للعجب كم أشياء تعلمت مذ صرت أخرج إلى البستان ولو بقيت في المنزل أجول وسط غرفة الضيقة لما عرفت شيئا من كل هذا - لماذا يمنعني خالي من الاطلاع ؟ لماذا يتركني بمعزل عن الأخطار ولا ينبهني إليها ؟ لولا البستاني لأمسكت عقربا بيدي ولكنت الآن في عداد الأموات».

وصارت كل يوم تخرج إلى البستان وتعتني بالتفاحة حتى أينعت من جديد وعادت الحياة إلى أغصانها واخضرت أوراقها وذات يوم أرادت أن تسقيها على عادتها فأخذت المرشة ولكنها وجدتها فارغة فاقتربت من البئر وكان الدلو على حافته فألقت به في الماء ورأته يغطس ويمتلىء وجذبت الحبل فشعرت أن الدلو رغم امتلائه خفيف ما دام في الماء لكنه عندما طفا على سطح الماء صار ثقيلا فأجهدت نفسها وجمعت كل قواها ولكن

الدلو غلبها فعاد فرسب في الماء ولم تفشل تفاحة فاعادت وأعادت جذبه وقد أدركها التعب وسال عرقها وفي محاولة أخيرة ارتفع الدلو ثم خانتها قواها فسقط وسقطت معه فصاحت صيحة شديدة ردد صداها البئر دون أن يجيبها أحد . وبقيت تتخبط وكلما صاحت امتلأ فمها ماء حتى أصبحت لا تقدر على الصياح وادركها التعب وكادت تستسلم وإذا بغصن من أغصان التفاحة يمتد ويمتد وينزل إلى البئر ويتحول إلى يد تصل إلى تفاحة وتمسكها من خصرها وتصعد بها وقد أغمي عليها وأوشكت على الغرق . ولما آستفاقت وجدت نفسها تحت الشجرة وقد تدلى منها غصن من أغصانها وشملها بعطفه فنهضت وقبلته طويلا ثم عادت إلى المنزل ونزعت ثيابها المبللة ولبست ثياب النوم وآرتمت على الفراش واستسلمت لنوم طويل مريح لم تستفق منه إلاّ من الغد وقد آستعادت نشاطها . وحدثتها نفسها بأن تخرج إلى البستان فقالت : لا ! لا ! يكفيني ما لقيت من أخطار . لن أعود إلى فتح الباب السابع . وسمعت صوتا يقول لها في سرها : «أصبحت تفرقين بين الخير والشر وأصبحت تعرفين الأخطار وكيف تتقينها فلماذا الخوف ؟» لا ! لم أعرف بعد من الحياة إلا القليل ثم إن خالي حذرني من أخطار سبعة واجتزت منها ستة وبقي السابع» . فأجابها الصوت : «اجتزت ستة بسلامة وتخافين خطرا واحدا». فقالت :

«لا ! لا ! لن أعود ربما كان السابع قاضيا على حياتي» . فأجابها الصوت :«التفاحة المسكينة التي أعدت إليها الحياة والتي أنقذتك من الغرق من سيسقيها ويقلع الأعشاب حولها إنها عما قريب ستذبل وستموت» فتقدمت تفاحة إلى الباب السابع وفتحته قائلة : «لا أترك تفاحتي العزيزة وحدها كلفني ذلك ما كلفني» وأخذت كعادتها تعتني بها وبينما هي منشغلة بسقيها وتترنم وحدها مرحة إذ سمعت صوتا آتيا من عل يقول لها : «أراك تعبة وقد حملت يديك الناعمتين عملا شاقا»فرفعت رأسها فإذا شاب جميل الطلعة طويل القامة أغنج العينين واقف بشرفة بالطابق العلوي فأجابته دون تردد : «يفنى مال الجدين ويبقى عمل اليدين» .

- يظهر أنك تحبين العمل ؟
- وأنت أتكرهه ؟
- أبدا لكني أعمل بصورة أخرى .
- وما هو عملك ؟
- القراءة والكتابة . ما اسمك بالله ؟
- وأنت من تكون ؟
- أنا طارق وأنت ؟
- أنا تفاحة .
- تعتنين بهذه الشجرة وتسقينها لو عددت كم ورقة فيها ؟

فأجابته فورا : «وأنت يا قارىء يا كاتب لو عددت كم في السماء من كواكب ؟»

ثم تركت المسحاة والمرشة ورجعت إلى المنزل وسمعته يقول لها : «إني هنا في مثل هذه الساعة من كل يوم» . فلم تجبه . وما إن دخلت المنزل وأوصدت الباب حتى أجهشت بالبكاء وبعد ساعة عاد عمي الدحداح فوجدها محمرة العينين كئيبة فسألها عما بها فامتنعت عن الجواب بل زادت في البكاء والدموع تتهاطل من عينيها فجعل يلاطفها حتى سكنت وهدأت نفسها وقالت :

«تركتني سجينة في هذا المنزل وحدي لا أرى أحدا ولا أعرف شيئا إنني ضجرت . أريد أن أعود إلى أمي ليتني بقيت معها .»

فقال لها : «قولي الحق لا شك أنك فتحت الباب السابع ؟ فبوغتت بهذا السؤال وقالت : «نعم ووجدت البستان جميلا ساحرا وتعلمت أشياء كثيرة . لماذا حرمتني رؤيته والتمتع بجماله والاستفادة منه ؟» فقال لها : «كنت صغيرة وكنت أخشى عليك أن تضيعي فيه أما الآن فلك أن تذهبي إليه متى شئت .» فانبسط وجهها ومسحت عينيها وقالت له لن أعود اليه قبل أن أتعلم القراءة والكتابة حتى لا أبقى جاهلة وحتى لا أكون سخرية أمام من يعرف القراءة والكتابة .

ـ حاضر ، حاضر ، سيأتيك ابتداء من الغد مؤدب يعلمك القراءة والكتابة وكل ما تريدين .

ـ لا ، خير لي أن أبدأ اليوم قبل غد .

وانقطعت تفاحة إلى التعلم والدرس دون أن تخرج إلى البستان وكان طارق يترقبها كل يوم بالشرفة لكن دون جدوى فيعود إلى مكتبه خائبا كئيبا . لا رغبة له في درس ولا في مطالعة . وبعد أشهر ظهرت تفاحة بالبستان وما أن رآها حتى أشرق وجهه وقال لها في لهفة :

ـ لماذا غبت عني كل هذه المدة الطويلة ؟

ـ تركت لك الوقت لتعد كل ما في السماء من كواكب .

ـ بل لأعد الأيام والساعات والدقائق التي لم تظهري فيها ولم أسعد فيها برؤيتك والحديث معك .

ـ يا خسارة كم أضعت من وقت ثمين لو كان طارق بن زياد حيا لما رضي أن تحمل اسمه .

وفهم من قولها أنها قضت الأشهر في التعلم والدرس لتصير مثله قارئة كاتبة وحز قولها في نفسه وقال لها دون أن يبدي أي امتعاض :

ـ وماذا ينقصني لأكون كطارق بن زياد وليرضى أن أحمل اسمه ؟

ـ ماذا ينقصك ؟ وهل لي أن أقول لك ماذا ينقصك ؟

عليك أن تفكر بنفسك وتنظر في أمرك وتعرف وحدك .
ودون أن تترك له مجالا للجواب عادت إلى المنزل وأوصدت الباب وطفقت تضحك ضحكة الانتصار ودخل طارق إلى مكتبه مغتما وبادر إلى فتح كتاب به حياة طارق بن زياد وانكب على قراءته دون انقطاع ولما أتمه قال : «فهمت قصدها إنني في رأيها شاب مائع ضعيف الجسم يميل إلى حياة النعومة والرقة تنقصه العزيمة وينقصه الحزم والإقدام لكن سترى».
ومن الغد أصبح يتعاطى الفروسية والمبارزة والرماية ولم تمض أشهر حتى صار شابا مكتمل القوى شديد العضلات تتقد عيناه حزما وعزما وفي كل تلك المدة لم يظهر بالبستان وكانت تفاحة تخرج كل يوم لتترقبه فلا تراه فتعود خائبة كاسفة البال قائلة في نفسها : «أخشى أن يكون أصابه مكروه أو غضب من كلامي» .
وذات يوم بينما كانت تسقي التفاحة على عادتها إذ سمعت صيحة شديدة آتية من عل فالتفتت وإذا بطارق يثب إلى البستان من أعلى الشرفة فصاحت تفاحة بدورها ورأته يجري نحوها ويأخذ المسحاة فيضرب بها ضربة شديدة على شيء يتحرك وأمعنت النظر فإذا هي أفعى كانت تزحف وقد اقتربت من رجلها وفتحت فاها وأخرجت نابيها وأوشكت أن تعضها . قطع طارق رأسها بالمسحاة فبقيت جثتها تتحرك لحظات قبل أن



تسكن . فارتمت تفاحة في أحضانه مرتعشة قائلة : «شكرا شكرا إنك أنقذت حياتي» . فضمها إليه وقال لها : «الحمد للّه على سلامتك» فقالت : «الحمد للّه على سلامتك أيضا كم خفت عليك لما رأيتك تلقي بنفسك من الطابق العلوي فشكرا وهنيئا لك يا طارق بن زياد» . فأجاب ضاحكا الحمد للّه أن نلت رضاك . وأضافت تفاحة في نفسها : «وان اجتزت الاخطار السبعة بسلام» .

ولم تمض أيام حتى تمت الخطبة وحضر أهله وأهلها وأقيمت الأفراح وتم الزفاف وسقطت من عيني عمي الدحداح دموع الفرح وقال : «الحمد للّه أن عشت لهذا اليوم السعيد ورأيت تفاحة عروسا جميلة وقد وفقها اللّه إلى اختيار أحسن الأزواج وإني أرجو لهما السعادة والهناء» .

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
5، شارع قرطاج - تونس
C 4/9/84
جوان 1984

مجموعة قصص الأطفال

الصّادرة في حجم 21 × 27

العصفور والملك
الفارس الصغير
قطي سوسو
النمر والسلحفاة
الأميرة عطاف
قاهر الذئاب
طرزان وشيطا
ضياء القمر
سر النجاح
فويلتي
عمي سعيد السنفاج
أبو سنام
أمي سيسي
مغامرات بنت دنو
ابتسام ثريا
طيور وزهور

قمّيحة
أضغاث أحلام
العصفور الجريح
عمار صاحب الحمار
المعزة المعزوزية
الفراشة الراقصة
الأسد والبعوضة
حب الكدر
عمي الدحداح بياع التفاح
الديك والماعز والكبش والحمار
مستحضر الجنية
الوسام
الحصان الوفي
صراع في الحقول
من أدوار جحا
الصياد الصغير

الأرنب العنيد
انتقام الأرنب
الأمير فيروز
بنت صياد السمك
الزوجة المطيعة
ابن الأرض في السماء
العصفور الأخضر
حكايات جدتي
الجار الحسود
أغاني الطفولة
الطفل والفراشة الذهبية
الأهازيج (شعر للتلاميذ)
عليسة (مسرحية شعرية)
حمار جكتيس

سحب من هذا الكتاب 30.000 نسخة

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج — تونس

السعر 0،700 د.